محمد بن ربيع الغامدي



تقييد أوابد السخرية

صناعة سخرية الناس وإعادة انتاجها واستهلاكها

كتاب الدكتور علي الرباعي " حدثتني سعدى عن رفعة قالت" مثالا



الباحة
2024



محمد بن ربيع الغامدي

تقييد أوابد السخرية

صناعة سخرية الناس وإعادة انتاجها واستهلاكها

كتاب "حدثتني سعدى عن رفعة" للدكتور علي الرباعي: مثالا

الباحة(٢٠٢٤م)

الطبعة الثانية

ح **محمد ربيع الغامدي ، ١٤٤٥هـ**

الغامدي ، محمد بن ربيع
تقييد أوابد السخرية. / محمد بن ربيع الغامدي - ط٢. .- الباحة ، ١٤٤٥هـ
٨٥ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٥/١٩٠٣٢
ردمك: ٨-٢٠-٠٠٢٠-٠٥-٦٠٣-٩٧٨

الأغلفة وتنسيق الصفحات: محمد بن ربيع

الطبعة الأولى ٢٠٢٢م الباحة

الطبعة الثانية ٢٠٢٤م الباحة

الإهداء

إلي أمراء الحكمة الساخرة الزين عرفتهم؛ والدى وعمّى

وإلي صديقهما كوعان "سعيد بن عيضة"

وإلي صديقى غرم التهامى

وإلي أبى رزق الزهرانى أمير الشعراء الساخرين

وإلي الدكتور على الرباعى صديق الساخرين

محمد بن ربيع



النافذة الأولى

السخرية في أوراقي

-مقدمة.

-حول التعريف.

-أنواع السخرية.

-أهدافها.

-ملاذاتها الآمنة.

مقدمة

مثلما اهتدى الانسان إلى التراجيديا لتزكية النفوس وتطهيرها فقد اهتدى أيضا إلى السخرية لنقد النقائص البشرية ومحاولة الخلاص منها.

وإن كانت التراجيديا قد نشأت على أيدي الثلاثة الكبار: اسخيلوس(٥٢٥-٤٥٦ق.م) ومجايله سوفوكليس(٤٩٦- ٤٠٥ ق.م) ومجايلهما يوربيدس(٤٨٠-٤٠٦ ق.م) فإن المسرح الساخر قد نشأ على يد أرستوفان (٤٤٦-٣٨٦ ق.م) الذي راد المسرح الساخر في اليونان القديمة وأمسى علامة عليه. وقد وصل إلينا من أعماله إحدى عشرة مسرحية، وفيها يسخر من كل الناس بما فيهم الشخصيات المعروفة أمثال سقراط (رغم كونه من أصدقائه) وكانت مسرحياته تفيض بالنكات والمبالغات والنقد السياسي اللاذع الذي غلّفه بثوب قشيب من الهزل.

وإذا كنا قد تعرفنا في زماننا- البعيد عن زمان أرستوفان وزمان المسرح اليوناني- على الكثير من الآثار الأدبية التي اتخاذ أصحابها من السخرية سبيلا لإشهار آرائهم ومواقفهم فإن هناك إرثا ضخما من السخرية خلّفه الانسان البسيط الذي لا يكتب ولا يوثق ما يقول. غير أن هناك من تصدى للتوثيق نيابة عنهم، وعمدة أولئك

شيخ الأدباء الجاحظ الذي دون الكثير من سخرية الناس الذين يمارسون سخريتهم في الهواء الطلق بعيدا عن التدوين والتقييد والتوثيق.

لقد اهتم هذا البحث بمحاولة تتبع أولئك الذين قيدوا أوابد السخرية من قبل الجاحظ ومن بعده فكان من عجائب الصدف أن أعثر على جاحظ معاصر، ولكنه بعينين سويتين لا جحوظ فيها ولا حول، وفوق أنه معاصر لنا فهو مجاور للنادي الأدبي بالباحة الذي يتبنى هذا الملتقى الفريد، فرأيت أن أختار كتاب: "حدثتني سعدى عن رفعة قالت" للدكتور علي الرباعي كمثال على تقييد أوابد السخرية ووحشيها، يمتاح مادة كتابه هذا من الباحة ومن همس الباحيين وجهرهم في أزمنة مضت.

وقد نظمت محتوى البحث في أربعة مفاصل فجاءت على الترتيب التالي:

أولا: السخرية وكيف جاءت في لغة العرب وفي اصطلاح أهل الأدب وفي المقاصد الشرعية وفي المخيال العام. وكذلك عاينت أهداف السخرية ثم حاولت تمييز بعض ملاذاتها الآمنة.

ثانيا: الساخرون. وفيهم صنّاع السخرية، وصائدوها، ومقيدو أوابدها.

ثالثا: كتاب "حدثتني سعدى عن رفعة قالت". فحاولت الاقتراب من بيئة السخرية فيه وملاذاتها الآمنة مع الاستشهاد بنماذج مما احتواه الكتاب.

رابعا: ثم أغلقت نافذتي بالخاتمة التي نثرت فيها- مقتضبا- بعض ما ظهر لي من نتائج وما عنّ لي من ملاحظات وانطباعات.

والله المستعان

محمد بن ربيع الغامدي

قرية الحبشي بالباحة

2024

حول التعريف

تنتمي كلمة السخرية في لغة العرب إلى جذر ثلاثي يتركب من الأحرف الثلاثة (س خ ر) وتفيد هذه الأحرف الثلاثة معنى السخرية إن جاء السين مفتوحا والخاء مكسورا والراء مفتوحا، فإن جاء الخاء مفتوحا فقد انتقل المعنى إلى باب آخر.

وجاء في معجم الصحاح في اللغة: سَخِرْت منه أَسْخَرُ سَخَراً بالتحريك، ومَسْخَراً وسُخْراً بالضم. وقال أيضا: وحكى أبو زيد: سَخِرْتُ به، وهو أردأ اللغتين.(يعني سخرت به وسخرت منه) ونسب صاحب اللسان إلى الفراء قوله: يقال سخِرت منه، ولا يقال سخِرت به. قال الله تعالى: لا يسخر قوم من قوم. ويؤكد صاحب اللسان أن الأفصح هو قولنا: وسخرت من فلان.

وقد وردت كلمة" سَخِرَ" – وما يخرج من عباءتها بالمعنى نفسه– في أربعة عشر موضعا من القرآن الكريم، تراوحت بين: سَخِرَ، فيسخرون، سَخِروا، تسخروا، تسخرون، نسخر، يسخر، ويسخرون، يستسخرون، الساخرين.

وفي كتب الأحاديث الشريفة – صحيح البخاري، صحيح مسلم، مسند ابن حنبل، سنن الترمذي، وسنن ابن ماجة– وردت ستة وعشرون مرّة بصيغ منها: سَخِرت، يسخر، تسخر، أتسخر؟، أسخر، يسخرون.

وجاء في دائرة معارف القرن العشرين: سخِر يسخر سخَرا وسُخْرا ومسْخَرا هزي. ثم جاء: استسخر منه سخِر منه، والسُخْرة الذي يُسخر منه، والسُّخَرة من يسخر بالناس.

أما المعجم الأدبي فقد كتب مؤلفه: سُخْريّة (ironie)]يقصدirony بالإنجليزية [نوع من الهُزء، قِوامه الامتناع عن إسباغ المعنى الواقعي أو المعنى كله، على الكلمات، والإيحاء عن طريق الأسلوب، وإلقاء الكلام، بعكس ما يقال. وقال أيضا: تتركز السخرية أصلا على طريقة في طرح الأسئلة مع التظاهر بالجهل وقول شيء في معرض ذكر شيء آخر.

ويقول أيضا: وقد اعتمد سقراط هذا النهج في جدله الفلسفي، فكان يفحم مناظريه، ويستدرجهم إلى الإقرار بما يريده منهم. ثم يضيف: وأقحم أرسطو السخرية في أبواب البلاغة وحددها بقوله: إنها الدلالة على الأشياء بأسماء أضدادها.

ثم يتحدث صاحب المعجم الأدبي عن السخرية أدبيا فيقول: برزت السخرية في كثير من الآثار الأدبية، وعني بها عدد من كبار

الكتّاب والشعراء واتخذوها اسلوبا في الإبانة عن آراء أو مواقف خاصة تتناول الناس أو قضايا الحياة.

ثم يعرّج صاحب المعجم على ذكر بعد أعلام السخرية فيقول: وقد يكون الجاحظ وابن الرومي من أبرز الأدباء العرب، وأناتول فرانس، وبرنارد شو من أشهرهم في الآداب الغربية.

ويختتم صاحب المعجم الأدبي مادته عن السخرية باقتباس لطيف من أدونيس(مع تحفظي الشخصي) الذي قال: السُّخريّة تُترجم حاجة روحية: المجتمع يسحق الشاعر بلا مبالاته وإنكاره، فيسحقه الشاعر بأن يسخر منه ويحتقره.

أنواع السخرية

للسخرية عند أهل الباحة مكانة خاصة وخيرها ما كانت " *محوّقة البراطم*" كما يقولون أو ما جاء منها على المشّ كما يقول سكان المدن الحجازية، ويعنون بذلك أن تحقق هدفا يشفي صدور الساخرين، والسخرية عندهم تنتظم في نوعين:

١- **سخرية خبيثة:** وهي تلك السخرية التي تستهدف أعيانا محددة على وجه التخصيص فردا أو قرية أو قبيلة أو طائفة أو مهنة، ويرون في هذه السخرية منقصة فيقولون: "*ما يضحك بالناس إلا أخسّ الناس*"، وإلى كونها سخرية ممقوتة فهي أيضا منهيّ عنها لقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (١١- الحجرات) .

٢- **سخرية حميدة:** وهي التي تضمن نقدا لسلوكيات أو مواقف عامة لا تضايق شخصا بعينه ولا طائفة أو قبيلة أو معيّنا محددا. تلميحات تأخذ بالساخر في مسارات القيم الإنسانية مدافعا عنها، ملهبا المشاعر الإنسانية ضد الخوف، والخرافة، دالا على

مواضع الظلم، ملهما للفهم، موجها أحاسيس الناس نحو الآلام واكتشاف مواضعها.

فإذا كانت تلك السخرية الحميدة فقد امتلكت مقومات التربية والتقويم والتعليم، وباتت سلاحا للدفاع عن قيم الحق والخير والجمال، تنوب في الشكوى عن آلاف المعاريض(مستندات الشكوى وعرض الحال) متسعة في الوقت نفسه لدواعي الامتاع والظرف والفكاهة، فإنها ستكون – بداهة– محققة لأهداف عديدة.

أهدافها

١- التأديب والتربية:

تستخدم السخرية كأداة من أدوات التربية والتأديب والتعليم التي يتبعها الكبار في اهتمامهم بالناشئة، ولذلك قالوا بلسانهم العامي: تشب القبس لحرب والا لبرد والا لجوع والا للعجاري، والعجاري هي السلوكيات غير المستساغة ونارها النقد والسخرية.

٢-المقاومة:

مقاومة كل شيء يضر بالحياة، من آفات حقيقية آو آفات معنوية، تعرّي باطل أهل الباطل ليحذره الناس، وتكشف عوار أعداء السلام ليتجنبهم المحتاج إلى السلام.

٣- الشكوى:

وكم من ضعيف لا حول له ولا قوة، وجد في السخرية الحميدة ما يشرح حاجته، ويبين عن ظلامته، مبتدعا أو مقتبسا فتصل رسالته كما أراد وفوق ما أراد.

٤- المرح والدعابة:

وهذا هدف له آثاره النفسية على الإنسان، فما أكثر ما تحمله السخرية من ألوان الدعابة، ومثيرات الضحك، مما يزرع الطمأنينة في النفوس، والنفوس إذا اطمأنت ارتاحت وأراحت.

ملاذاتها الآمنة

لما كانت السخرية مطاردة فقد اعتاد الساخرون على إيداعها في ملاذات آمنة، تسهيلا لاستلامها وتسليمها بين المرسل والمستقبل، هكذا هي السخرية تختبئ غالبا في مخابئ سهلة الانتقال والشيوع ومنها:

١- المسكوكات اللفظية:

وهي تلك العبارات المقتضبة ذات الدلالة العميقة والواسعة، خرجت عن جرمها المادي لتصبح عنوانا ثقافيا كبيرا، ينصرف إلى معان ودلالات كثيرة تمتطيها السخرية ويتحكم بها الساخر.

ومن تلك المسكوكات في الفكر العربي: عصا الترحال، آباط الإبل، بنات نعش، أم الكبائر، المُغيدي. ومنها في الثقافة الشعبية المتداولة في الباحة: حسيل الغُدْرة، الطير وشبّار الخير، بطنه بظهره، عش الدبارين، طالع الدرجة، صيد امسي، حقل الفيّة الخ

٢- المبطنات المتداولة:

وأهمها في الفكر العربي الشعر على اختلاف أنماطه، والمثل السائر، والسرد وفنون الدراما التي شاعت في أزمنة أحدث.

أما في الثقافة الشعبية السائدة في الباحة فمنها: الشعر الشعبي، والأمثال الشعبية السائرة، والحكايات الشعبية وعموم السرديات المروية، وفنون الدراما الشائعة محليا.

٣- الكاريكاتير:

وهو الفن المعروف القائم على الرسم ولم يعرف في مجتمع الباحة إلا بعد شيوع الاستقرار وذيوع الصحافة.

النافذة الثانية:

حركة السخرية

-إنتاج السخرية.

-إعادة إنتاجها.

-استهلاكها.

أ-إنتاج السخرية:

للأبعاد الكثيرة التي تنطوي عليها السخرية فقد اتخذت وضعا متحركا داخل حياة هي متحركة بدورها، وكأننا نرى في تلك الحركتين حركة الأرض حول نفسها وحركتها حول الشمس في آن معا.

ولعل البعد الحجاجي هو أول تلك الأبعاد جميعا، وان كان الاقناع هو حجر الزاوية في الخطاب الحجاجي كما يرى جورج موليني فإن السخرية هي كعبة الاقناع، وقد فطن قدماء الفلاسفة إلى تلك الحمولة التي تحملها السخرية فاتخذوها وسيلة للإقناع والتأثير، ويأتي افلاطون وأرسطو وسقراط في مقدمة أولئك المفكرين وإن كان سقراط قد امتلك زمام سخريته الخاصة به أكثر من غيره.

وبإضافة البعد التربوي إلى البعد الحجاجي للسخرية، وإلى البعد السياسي والاجتماعي والسيكولوجي أيضا يتوجب علينا أن نعاين الأركان الثلاثة لحركة السخرية داخل مجتمع حي متحرك، وهي الأركان التي يمكن حصرها في: المنتِج، والوسيط، والمستهلك.

قام على انتاج السخرية التي امتلأت بها أسماعنا وأبصارنا فئات كثيرة، بدأت خطواتها الأولى من غير ضجيج أو صخب ثم

تناولها الناس فألبسوها حلال زاهية، وتبنّت منهم الأمم ما تبنت لتدير على ظهورها سخريتها الخاصة. وهؤلاء هم منتجو السخرية:

أولا- الظرفاء

الذين اصطفاهم الناس وأخضعوا حركاتهم وسكناتهم للتداول، فأسطرهم ذلك التداول الواسع، وألبسهم ثيابا غير ثيابهم، وطفق الناس يحمّلون ما تشتهيه أنفسهم من السخرية على أكتاف تلك الشخصيات المؤسطرة.

*ويعتبر جحا واحدا من أبرز أولئك الظرفاء في العالم كلّه، لا جنسية له، حيث هناك جحا التركي وجحا المصري، وجحا العربي، وفي كل أرض تجد جحا، ولم ولن يصل أحد من الباحثين إلى كشف حقيقته التاريخية، وستبقى الجحويات أكثر أهمية من جحا نفسه.

وقد أحسن العقاد عندما ختم كتابه عن جحا الضاحك المضحك بقوله: ونودع الآن جحا والجحويات ونحن نحمد للضاحك المضحك أنه أعار اسمه - عامدا وغير عامد - لُباباً من الدراسة النفسانية والاجتماعية لم يكن ميسورا لنا بغيره، ولن يبخسه شيئًا من الحمد أن يكون على وفاق مع التاريخ أو على افتراق من كل تاريخ.

*ومن أولئك الظرفاء أبو نواس، وكلنا نعرف الشاعر العباسي العظيم الذي بلغ في المجون مجدا وبلغ في التوبة مجدا آخر، لكن

بعضنا فقط من يعرف أبو نواس المختلف، أبو نواس الشعبي، صاحب النوادر، الملتحم مع المخيال الشعبي العربي، الذي اهتمت به المطابع العربية منذ بداياتها الأولى فجمعت نوادره جنبا إلى جنب مع تغريبة بني هلال وسيرة عنترة والأميرة ذات الهمّة.

ومن عجائب الأمور أن المخيال الشعبي في الباحة قد احتفى أيضا بأبي نواس آخر يتداول أهل الباحة نوادره التي تأتي على شكل مقالب يصنعها ليتورط فيها سيده فلاح.

ثانيا- المعتلّون اجتماعيا

الذين وجدوا من يعتني بأخبارهم فيجمع نوادرهم في أسفار ماتزال معتبرة متداولة بين أيدي العامة والخاصة، ومن بين أولئك: الأكلة، واللصوص، والبخلاء، والحمقى والنوكى والمغفلين.

*- الأَكَلَة: لقد جمع المدائني أخبار الأكلة في كتاب سماه على شهرتهم، والمدائني هو علي بن محمد بن أبي سيف (١٣٥ – ٢٢٨هجرية)َ ذكرَ لهُ ابنُ النَّديم في (الفهرست) ما يربو على (٢٣٩) كتابا. منها: في أخبارِ النبيّ وعهودِه، وكُتُبه إلى الملوكِ، وفتوحاتِه، وخُطبِه، ومغازيهِ وسراياهُ، وأزواجِه، وَرُسُله إلى الأمصارِ. ومنها: في أخبارِ قُريشٍ، وزعمائِها، وفضائلها. ومنها: في أخبارِ الخُلفاءِ،

وتسميتهِم، وكِناهُم، وأعمارهم. ومنها: في التعازي، والأوائلِ، والأَكَلة، والخيلِ، ومفاخرةِ العربِ، والعجمِ.

وكتابه عن الأَكَلَة هو مطلبنا هنا وقد وصلت إلينا أخباره ومقتطفات من محتوياته التي منها على سبيل المثال: "وفي المثل أكلة أبي خارجة وقال أعرابي و هو يدعو الله بباب الكعبة اللهم ميتة كميتة أبي خارجة، فسألوه. فقال: أكل بذجا(حملا) وشرب وطبا من اللبن (وعاء كبير كالحوض) ونام في الشمس فمات فلقي الله تعالى شبعان ريان دفيئا.

*- الحمقى والمغفلون: والحمقى والمغفلون فئة معتلّة أخرى جمع أخبارها الجوزي في كتاب" أخبار الحمقى والمغفلين، والجوزي هو أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي(٥٠٨- ٥٩٧ هجرية) وله مؤلفات كثيرة منها: نقد العلماء، المدهش، صيد الخاطر، وغيرها.

ومن أخبار المغفلين التي أوردها في كتابه: عن المروزي قال: اشترى أبو عبد الحميد سمكة فنام إلى أن تستوي، فجيء بالسمكة فأكلتها امرأته مع نساء، ثم مسحت شفتيه وأطراف أصابعه منها، فانتبه فدعا بالغداء وقال: هاتوا السمكة. فقالت له امرأته: يا مخبل! ألست قد أكلتها ونمت ولم تغسل يديك؟ فشم يده فوجد ريح السمك

فغسل يده وقال: ما رأيت سمكة أمرأ من هذه. قد جعت فهيِّئُوا لي الغداء.

هذان أنموذجان وهناك غيرهما: اللصوص الذين عني بجمع أخبارهم أبو عبيدة، والبخلاء الذي جمع أخبارهم الجاحظ عمرو بن بحر الذي تغني شهرته عن الترجمة له.

ثالثا: الأدباء الساخرون بطبعهم

الذين مارسوا السخرية حجاجا في خضم حياتهم اليومية خطابا ونصوصاً:

*- منهم أبو العيناء وهو محمد بن القاسم بن خلّاد(١٩١-٢٨٢هجرية) وصفه بعض من وصفه فقال: كان حسن الكتابة ، بليغ الخطابة، مليح الشعر، طلق اللسان) وأضاف(سريع الجواب، حاضر النادرة). وحاضر النادرة هذه صفة تبدو ميدانية بالفعل فإن له من النوادر الحاضرة نوادر كثيرة، وقد حظيت نوادره بمكانة بارزة في الموروث الأدبي لما تحمله من قوة حجاجيه، ومن سرعة بديهة، وحسن اختيار للجواب، وقدرة على النفاذ في المواقف الحرجة، خاصة أمام الخليفة المتوكل وحاشيته، فجعل من النادرة خطابا تواصليا يكرس لآليات السخرية من السلطة في سياقها اللغوي، وفي سياقها المقامي، كالسخرية في قالب المدح والتعريض والمخاتلة.

ومن نماذج النَفَسِ الحجاجي الذي يتمتع به ما رواه بنفسه عن نفسه حيث قال: قال لي ابن السكيت يوما بين يدي المتوكل وقد تحاورنا شيئا من الأدب، أتراك أحطت من هذا بما لم أحط به؟ فقلت: وما أنكرت؟ فوالله لقد قال الهدهد لسليمان: أحطت بما لم تحط به!

*- ومنهم أبو حيان التوحيدي (٣١٠ -٤١٤ هجرية) فيلسوف متصوف، وأديب علم، امتاز بموسوعية الثقافة وحدة الذكاء وجمال الأسلوب، وامتازت مؤلفاته بالتنوع والغزارة فضلا عما تضمنته من نوادر وإشارات تشفّ عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والسياسية في زمانه وتضطرم بآراء المؤلف حول رجال عصره من سياسيين ومفكرين وكتاب.

من كتبه: الإمتاع والمؤانسة- البصائر والذخائر- الصداقة والصديق- أخلاق الوزيرين- الهوامل والشوامل وقد حذا في أسلوبه الأدبي حذو الجاحظ، حيث كتب بلغة مباشرة بعيدة عن التكلف، مهتما بالمعنى، فهجر السجع وعموم المحسنات، ومال إلى الإطناب والتعليل والتقسيم والاستشهاد بالنوادر والأخبار، وكان ساخرا في كتاباته وسخريته مرّة في معظم حالاته.

ومن شذراته الساخرة ما تجده في نصه التالي: " ووالله لربما صليت في الجامع، فلا أرى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقال،

أو عصار، أو نداف، أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه، فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، ملازماً للحيرة، محتملاً للأذى، يائساً من جميع من ترى».

*- ومنهم أحمد محمد السباعي (١٣٢٣- ١٤٠٤ هجرية)

واحد من أهم مؤرخي مكة المكرمة وله أيضا قرابة ستة عشر مؤلفا وأسس صحيفتين وأسهم في أخرى، كما ساهم في تأليف الكتاب المدرسي للمدارس السعودية وفكر في تأسيس مسرح في مكة المكرمة لكنها فكرة لم يكتب لها النجاح وقد حظي بتقدير الدولة فنال جائزتها التقديرية باعتباره رائدا من رواد الثقافة والفكر في المملكة العربية السعودية.

وهذه هي التوطئة التي كتبها كمدخل لقصته الرائدة " فكره" والتي تشي بالنَفَس الحجاجي والروح الساخرة التي كان عليها شيخ المؤرخين وإمام الصحافيين وعميد الساخرين رحمه الله:

لا أعرفُ بالضبط أول مؤلِّف فكر في أن يلتمس لإنتاجه كبيراً من أُدباء الجيل، يقدمه بفذلكة قصيرة، أو فصل مطول، ولكنني أعرف أنه كان مهرِّجاً إلى حد، وأن فيما ابتدعه شيئاً من الشعوذة والحيلة، وشيئاً آخر من الاستجداء.

وأكبر ظني أنه في اليوم الذي دالت فيه دولة التقاريظ، واستفتاح المؤلفات بالسجع المقفّى، الذي يطري المؤلّفين ويرتفع بهم إلى مقام وحيد العصر، وفريد الدهر، حل التقديم المفوَّف، والثناء المبطّن، محل ذلك البهرج المكشوف.

لنترك هذا إلى الطريق المطمئن، ولْنبدأ فيما ننتج مجردين من الصنعة. بين يدي القارئ اليوم، قصة فتاة عاشت لأفكارها، ودانت لما تعتقد، ولم تخضع قط لتقليد لا يؤيده منطق، أو تدعمه بيِّنة واضحة.

وهي على ما يتألق في أهدابها الوُطْف، وأعيانها الدُّعْج، ومحيَّاها المشرق، تأبى إلاّ أن تعيش العيش الخشن، وتجالد مجالدة الأقوياء، ضد أوجاع الحياة، وتسخر سخرية الفلاسفة بأوجاع المجتمع.

ويصادفها شاب عاش لرجولته وأخلاقه السامية، بقدر ما ترفَّع عن تهافت الشباب الرقيع، فيأبى عليه سوء طالعه، أو حسنه إن شئت؛ أن تتفتح نفسه لما تألَّق في أهدابها وأجفانها، ويسحره ما أشرق في محيَّاها من الفتنة، فيغدو صريع هواها، وتغدو ساخرة بأفكاره التقليدية في الحب والحياة.

فهي تفلسف الحب، في شكله الأخير، فتعدُّه غلطة الأجيال والحقوب، تحدرت إلينا في أسلوب كانت القصة والوضع أهم عناصره. وهي ترى أن الرباط الذي يشدنا إلى العرف قد أحكم وثاقه حتى بتنا نتشبث به تشبثاً بشيء مقدَّس، وإن كان بعيداً عن المنطق والعقل، بعيداً عن الدين!

وتفضي المصادفة بينهما إلى صداقة أخذت تتنامى مع الأيام، فكانا يمضيان معاً في مذاهب كثيرة في ضواحي الطائف، ويتمتعان بينها بمشاهد جميلة أَخَّاذة، ومناظر طبيعية فاتنة، ويتناول حديثهما صنوفاً شتّى من ألوان الحياة ومناحيها بالتفنيد والتعقيب، في روح الساخر بأوضاعها، الهازئ بتقاليدها.

وتمضي بهم القصة، أو يمضيان فيها إلى نهاية لا أستبق القارئ بها، ولا أوشّي بين يديها بكلمة.. وحسب القارئ أن يمضي في لِيَّته –إذا شاء– مجرداً من التهيئة والإعداد!

*– ومنهم الشاعر أحمد قنديل (١٣٢٩– ١٣٩٩) واسمه أحمد صالح قنديل، شاعر وصحفي رأس تحرير صحيفة صوت الحجاز وله من المؤلفات: يوميات، الأبراج' الأصداء، أغاريد، شمعتي تكفي، أبو عرّام والبشكة، الجبل الذي صار سهلا وكثير غير ذلك.

وهو كاتب ساخر يصافح قارئه كل صباح بعموده اليومي «قناديل» يكتبه شعرا بلغة نقدية ساخرة، وقد كرّس هو وغيره من الشعراء لشعر ساخر عُرف بالشعر الحلمنتيشي الذي أخذ(بحسب الباحث حسين بافقيه) يذاع بين الناس وينتشر وهم يحفلون به مردهم في ذلك ما يقدمه من نقد وإصلاح وبسخرية وهزل وفكاهة، واستجاب لهذا الشعر المرتبط بالناس كوكبة أخرى من الشعراء فنظم فيه محمد سعيد عتيبي ومحمد درويش وعبد العزيز الرفاعي وحسن صيرفي وحسن نصيف وعمر عبدربه.

* ومنهم علي العمير (١٣٥٦- ١٤٤٣) وهو علي العمير مدخلي صاحب المنافرات الصحفية والسجال النقدي الذي لا يتثاءب، كتب في غير صحيفة واحدة، وانشأ دارا للنشر أسهمت في خلق حراك ثقافي مشهود، اشتهر مؤخرا بزاويته " تحت الشمس" في صحيفة عكاظ، وجمع كل منافراته الصحفية في كتاب منافرات صحفية، وجمع مؤلفاته النقدية في كتاب واحد سمّاه مجموعة اللفحات، وله كتب كثيرة أخرى منها: تحت الشمس، حصاد الكتب، مناوشات أدبية، ومع ميله للكتابة الساخرة إلا أن سخريته أشد ما تتضح في كتابه الساخر: الوخزات.

وقد جاء في مقدمته لكتاب الوخزات: هذا الكتاب مصدر اعتزاز خاص بالنسبة لي، ذلك أنه يمثل منهجي في الكتابة خير

تمثيل وهو الميل الشديد الى الكتابة المرحة الساخرة التي أكتبها وأنا أحاول انتزاع ابتسامة من القارئ لإدراكي مدى التجهم والمعاناة النفسية المتضاربة والقاسية التي يعيشها معظم القراء وأنا منهم كنتيجة حتمية للصراع الشديد في زحمة الحياة الحديثة. ومطالبها العديدة وضغوطاتها المتناهية! ومن هنا كان حرصي الشديد في معظم كتاباتي المتواضعة علي انتزاع ابتسامة من القارئ لطرفة هنا، أو نكتة هناك، أو السخرية اللاذعة بنفسي وبالأشياء من حولي!!

* ومنهم اناتول فرانس(١٢٦٠- ١٣٤٣هجرية) واسمه: فرانسوا اناتول تيبو، روائي فرنسي له رواية سلفستربونار، وله سيرة ذاتية اسمها: كتاب صديقي، لكن سخريته ظهرت بوضوح في روايته تاييس التي أصدرها في عام ١٣٠٧ هجرية، وله أيضا: ثورة الملائكة، الزنبقة الحمراء، وحاز نوبل في عام ١٣٣٩ هجرية.

قبل عنه: كتب اناتول فرانس عن كل شيء في الحياة، وكذلك سخر من كل شيء في الحياة، بل قد نظلم الرجل إذا قلنا إنه سخر فقط، الحق أنه أشفق على كل شيء ثم سخر من كل شيء.

قال عنه عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين: إن فلسفته تتلخص في كلمتين: الشك والرحمة. وقد عرف عنه سخريته بالاشتراكية رغم أنه يراها محققة لآمال السعادة لكنها لن تسلم في ذات

الوقت من تلاعب الشهوات الانسانية، وقال مثل ذلك في سخريته من الثورة الفرنسية: إن أبطالها قد غطّت شهواتهم وأطماعهم على مبادئهم التي أذاعوها وتشدقوا بها كثيرا.

*- ومنهم جورج برنارد شو(١٢٧٢- ١٣٧٠هجرية) كان ساخرا من رأسه حتى أخمص قدميه، في كتاباته وفي سكناته وحركاته، يسخر حتى من نفسه كما كان الجاحظ يفعل. مثلاً عندما سُئل برنارد شو عن حالة الاقتصاد العالمي، قال: غزارة في الإنتاج وسوء في التوزيع، مثل لحيتي كثيفة ورأسي الأصلع.

تزخر مسرحياته وعموم أعماله بالظرف والسخرية، ومنها مسرحية الرائد باربارا، ومسرحية بيوت الأرامل، ومسرحية بيجماليون، ومسرحية بيت القلب الكسير، ومسرحية الإنسان والسوبرمان، وقد زادت مسرحياته عن خمسين مسرحية أخرج بنفسه عددا كبيرا منها.

رفض جائزة نوبل التي جاءت إليه منقادة في عام ١٣٤٣ وقال مبررا: وَصَلتُ بر الأمان فلماذا ترسلون لي طوق النجاة؟ ومما ينسب إليه قوله: كن حذراً من الرجل الذي لا يرد لك الصفعة: فهو بذلك لا يسامحك ولن يسمح لك بمسامحة نفسك. وقوله: إنني أغفر لنوبل إنه اخترع الديناميت لكنني لا أغفر له أنه اخترع جائزة نوبل.

هذا غيض من فيض وإلا فالأقلام الساخرة عالية الجودة كثيرة عربيا ومحليا، وفيهم محمود السعدني، وأحمد رجب، وجلال عامر، وعمر طاهر، وبلال فضل، وجعفر عباس.

ومحليا هناك يوسف عمر عبد ربه صاحب البلديات الشهيرة، وفهد العريفي، وخلف الحربي، ومحمد السحيمي، وريهام زامكه، والقاص الكبير محمد الراشدي، وغيرهم كثير، لكني اكتفيت بالبعض رغم جدارة الكل فالبحث ليس موضع حصر واستقصاء.

رابعا: الصحافة الساخرة

وقد ألفت المجتمعات صدور صحف ساخرة في بقاع شتى من العالم، وفي محيطنا العربي يعتقد بعض الباحثين أنها قد بدأت في الذيوع والانتشار منذ الربع الأخير للقرن الثالث عشر الهجري.

*صحيفة النحلة: من بين تلك الصحف الساخرة صحيفة النحلة التي أصدر عددها الأول القس لويس صابوني في بيروت يوم الخميس ٢١ صفر ١٢٨٨ هجرية ، وكانت بخط اليد ثن انتقل بها إلى القاهرة تحت وطأة وشايات محلية وهناك انتقلت من الكتابة اليدوية إلى الطباعة فأسماها النحلة الجديدة، ثم انتقل بها إلى لندن بحثا عن مستويات طباعية وعن حريات أكثر فأعاد لها اسمها الأصلي النحلة

وظل مداوما عليها إلى أن قُتِل في منزله، قتله لص فاتك طمعا في ماله، فتوقفت معه بعد ٦٠ عاما من الصدور.

* صحيفة الجُعْبة: صدرت حوالي عام ١٢٩٠هجرية في قرية درعون في لبنان أصدرها نوفل قانصوه الخازن وكان قاضيا ثم ترك القضاء إلى المحاماة، ودأب على نشر أشعاره وآرائه السياسية في هذه المجلة.

* صحيفة أبو نظارة: صدرت في عام ١٢٩٤ هجرية في القاهرة ولما كانت تدرج رسوما كاريكاتورية فقد جعل منها ذلك أول صحيفة كاريكاتورية عربية ساخرة، وقد حوربت كثيرا فانتقل بها صاحبها إلى باريس وظل اسمها عرضة للتغيير فصدرت في أكثر من عشرة أسماء منها أبو نظارة زرقا، أبو زمارة، الحاوي، الثرثارة المصرية وغيرها.

وهناك صحف ساخرة أخرى منها: التنكيت والتبكيت التي أصدرها عبدالله النديم بعد عقد من صدور " أبو نظارة" ومنها: ديوان الفكاهة والأستاذ والدبور اللبنانية التي ماتزال حتى الآن، ومنها البعكوكة.

أما في المملكة العربية السعودية فلم تشهد صحفا مفرغة بكاملها للسخرية وللفكه، ولكنها شهدت صفحات كانت تنتهج أساليب ساخرة، وشهدت أيضا أعمدة ثابتة تقوم على السخرية وعموم النقد، ارتبط بها الناس كثيرا ومنها:

*- أمين سالم رويحي(١٩٢٣- ١٩٧١) وهو إذاعي وقاص وصحافي، قدم برنامجا للأطفال عُرِف فيه باسم بابا أمين، وأصدر مجموعتين قصصيتين هما: الأذن تعشق والحنيّنة. لكنه ارتبط بقرائه من خلال صفحته الساخرة التي حملت اسم " أبو حياة" عند نشرها في صحيفة الأضواء، ثم "أبو حياة والناس" بعد انتقالها إلى صحيفة المدينة. وكان يمارس خلالها نقد السلوكيات الخاطئة للناس وللمجتمع متنقلا بين الفصحى البسيطة وبين العامية الدارجة في حواضر الحجاز.

*- د. اسماعيل حسن غسّال، كان مدير الوحدة الطبية في جامعة الملك عبد العزيز (شطر مكة المكرمة) وعضو الهيئة التأسيسية لنادي مكة الأدبي، وله مؤلف طبي واحد هو كتاب "نقل وزرع الأعضاء، معالجة طبية جراحية شرعية" كما أن له ولع بالفنون والآداب وكان يحرر صفحة شعبية ساخرة على غرار صفحة" أبو حياة والناس" ولكن في صحيفة عكاظ وظهرت في بعض الأحيان تحت اسم اليابا، و اليابا هو كبير الفتيان في أحياء مكة القديمة.

*- سعد الثوعي(١٣٦٧- ١٤١٩هجرية) شاعر وأديب وصحفي وصانع صحفيين، عمل في التدريس وعضا في تأسيس نادي الطائف الأدبي. له من المؤلفات: مرافعات ضد العشق(شعر) مسيكينه(شعر) هلا هيله(شعر) وقد عمل في صحف كثيرة وارتبط بهموم الناس

وقضاياهم عبر صفحته الشعبية الأسبوعية " ورقات شعبية " التي استقر بها المقام في صحيفة عكاظ ، وعبر عموده الشهير " زاويه حاده في صحيفتي عكاظ والبلاد.

وإلى هؤلاء فقد برزت أقلام أخرى ناقدة منها قلم أحمد سعيد مصلح الذي كان يمارس نقده الساخر عبر عموده اليومي الشهير" الصحفي المتجوّل" وعبدالله الخطيب في مجلة الجزيرة ، والدكتور علي محمد الرباعي الذي ما يزال يواصل كتاباته في صحيفة عكاظ تحت عنوانه الشهير: بالسكين.

ب: إعادة انتاج السخرية

قام على إعادة انتاج السخرية فئات أخرى من المجتمع، وكانوا في إعادتهم تلك بمثابة أسواق لترويجها بين الناس، ومن أولئك الذين أعادوا انتاج السخرية:

أولا: كُتّاب الدراما

لقد وجد بعض كتاب المسرح وبعض منتجي الدراما التلفزيونية كنزا مدفونا في ركامات تراثنا الساخر فطفقوا يستلهمون من أجوائه ومن أقاصيصه ما يرضي رؤاهم الفنية في المسرح وفي الدراما وخاصة الإذاعية والتلفزيونية. وهذه بعض تلك النماذج:

*- جحا ، ظل جحا هدفا مشروعا لكثير من المؤلفين والمخرجين والمنتجين فتم تقديمه على خشبة المسرح وفي الإذاعة وفي التلفزيون من أقصى المغرب حتى أقصى المشرق العربي، وجرت صياغته للكبار حينا وللصغار حينا، بأسماء مختلفة وأطياف متباينة، ولعل جيلي ما يزال يتذكر مسلسل عائلة جحا الذي كانت تذيعه الإذاعة السعودية خلال فترة الاستماع الذهبية الرمضانية (بين المغرب والعشاء) خلال عام ١٣٨٤ هجرية . وما يزال أبنائي يطلقون على

الممثل الكويتي إبراهيم الصلال اسم جحا لأنهم قد عرفوه في دور جحا خلال مسلسل تلفزيوني للأطفال.

لقد تحرك جحا على ميزانسين المسرح في أكثر من حقبة وفي أكثر من مكان، ونذكر هنا بمسرحية جحا يحكم المدينة التي كتبها وحيد حامد وأخرجها للمسرح شاكر خضير، وفي الحقيقة فإن الحصر والتتبع يعجز عن ملاحقة جحا وتداعياته في المسرح وفي الإذاعة والتلفزيون.

*مقامات بديع الزمان الهمداني: كتبها وأخرجها للمسرح المغربي الطيب الصديقي في عام ١٣٩٢ هجرية.

* علي جناح التبريزي وتابعه قفه: كتبها المسرحي المصري الفريد فرج وأخرجها محمد أبو الفتوح وسعد أردش على المسرح المصري عام ١٣٨٩ هجرية ثم أخرجها صقر الرشود على المسرح الكويتي في عام ١٣٩٥ هجرية، والنص مستوحى من حكايات ساخرة من حكايات ألف ليلة وليلة هي حكاية معروف الإسكافي وحكاية الجراب.

* مسرحية الممثلون الصغار، كتبها محمد بن ربيع (كاتب هذه الأسطر) وأخرجها أحمد صمعي عام ١٤٣٦هجرية لصالح جمعية الثقافة والفنون بالباحة وهي للأطفال عن نص من نصوص

ألف ليلة وليله أعاد صياغته الكاتب كامل كيلاني في قصة بعنوان: تاجر بغداد.

ومن المسلسلات التلفزيونية الضخمة:

* البخلاء: مسلسل أنتج في لبنان عام ١٤٠٣هجرية في إطار حلقات متصلة منفصلة، يروي في كل حلقة حكاية شهيرة عن البخل التي وردت في كتاب البخلاء للجاحظ. قام بأداء الأدوار نخبة كبيرة من نجوم الفن في لبنان، وكتبه مروان العبد بينما أخرجه إبراهيم قعوار ومثّل فيه إلياس رزق، لمياء فغالي، عوني المصري، صبحي عيط، نهى الخطيب.

*مسلسل مقامات بديع الزمان الهمذاني- أنتاج مؤسسة الخليج العربي للأعمال الفنية في دبي سنة ١٤٢٢هجرية، اخراج بسام سعد، تدور أحداث المسلسل ضمن المقامات الشهيرة للهمذاني في اطار مسيرة قافلة تتداخل فيها بعض القصص والحكايات التي تمتد على مدار ٣٠ حلقة هي عدد حلقات المسلسل الذي جرى تصويره في مواقع عديدة بريف دمشق، وشارك فيه اكثر من ١٧٠ فنانا سوريا، منهم عبد الرحمن آل رشي وروعة ياسين وجيانا عيد ورضوان عقيلي وفاتن بركات وحسان يونس ونجوى علوان وكاريس وتيسير ادريس

وحسام عيد وآخرون. وكل هذا مجرد أمثلة ومكتبات الإذاعات العربية مليئة بمثل هذه الأعمال القيّمة.

ثانيا: كُتّاب السرد:

وهم الأدباء الذي اشتغلوا على السرد فاشتبكوا في كتاباتهم مع الساخرين الأسوياء الذين تموج بهم مجتمعاتهم، أو التقطوا الأحداث والاستجابات الساخرة التي تواترت أخبارها عبر الأجيال أو تلك التي تحدث خلال الفعل اليومي للحياة داخل مجتمع الكتب، ومنهم أصحاب المقامات وما أكثرهم في تاريخنا الأدبي(الهمذاني، ابن نباتة، ابن ناقيا، الحريري وسواهم) ومنهم كُتاب القصة القصيرة وفي الأسطر التالية نماذج لأهل السرد أولئك:

*بديع الزمان الهمذاني(٣٥٨- ٣٩٨ هجرية) واسمه أبو الفضل أحمد بن الحسين وشهرته بديع الزمان الهمذاني. لغوي وأديب وشاعر سريع الخاطرة قوي البديهة، له ديوان شعر لكن مقاماته قد غلبت حيث كانت حجر الأساس في فن المقامة.

تتضمن المقامات عددا من الحكايات القصيرة جمعت بين النثر والشعر بطلها أبو الفتح الإسكندري وهو شخصية وهمية يتصف بالمكر والخداع، وقد أوتي من الفصاحة والقدرة على نظم الشعر ومهارة التخلص ما جعل منه شخصية ظريفة مقبولة عند الناس وما

مكنه من انتزاع البسمات ونثر أجواء الفكاهة من حوله، وقد ابتكر الهمذاني شخصية وهمية أخرى لرواية مغامرات أبي الفتح هو عيسى بن هشام.

وتعتبر حكايات مقامات بديع الزمان الهمذاني خطابا ينطوي على السخرية التي تحمل بين طياتها نقدا للمجتمع، بما فيه من نقائص ونواقض، فقد تعمد بديع الزمان الهمداني تتبع ظواهر ناشئة في مجتمعه آنذاك مندِّدا بها علنيا مندِّدا بأسبابها ضمنيا، ومنها: الاحتيال والنصب والتسول والكدية وشتى وسائل الكسب التي فرضته أحوال البلاد آنذاك.

*- المويلحي (١٢٧٤-١٣٤٩ هجرية) واسمه محمد إبراهيم المويلحي، أديب وابن أديب وقد شارك والده في تأسيس صحف عديدة وتولى رئاسة تحرير صحيفة مصباح الشرق. له مؤلفات كثيرة منها " نقد ديوان شوقي، ومنها علاج النفس، غير أن روحه الساخرة قد تمثلت في كتاب" حديث عيسى بن هشام ".

إن كتاب" حديث عيسى بن هشام" هو في أصله سلسلة مقالات نسجها المويلحي على نهج بديع الزمان الهمذاني متخذا الراوي نفسه عند الهمذاني: عيسى بن هشام، ولكن على مسارات حديثة تناسب عصر المويلحي متضمنة نقدا اجتماعيا لاذعا في خروج

واضح عن وعاطفيات أو فلسفيات عصره. وهنا جزء من مقالة في الكتاب كان عنوانها: الشرطة أو البوليس:

ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا في الطريق، وبينا نحن نسير؛ إذ تعرض لنا مَكَارٍ يسوق حماره وقد راضه الخبيث على التعرض وسد الطريق على المارة، فكلما سرنا وجدنا الحمار في وجهتنا والمكاري ينبح بصوت قد بُح حتى أمسك بذيل صاحبي يقول له:

المكاري (للباشا): اركب يا أفندي فقد عطلتني وأنا أسير وراءك منذ ساعتين.

الباشا (للمكاري): كيف تدعوني أيها الشقيُ إلى ركوب الحمار وما رغبت فيه قط، وما دعوتك في طريقي! وكيف لمثلي أن يركب الحمار الناهق، مكان الجواد السابق!

المكاري: وكيف تنكر إشارة يدك التي دعوتني بها، وأنت تتكلم مع صاحبك في طريق «الإمام»، وقد دُعيت مرارا من السائرين فلم أقبل منهم، ولم ألتفت إليهم لارتباطي معك بتلك الإشارة، فاركب معي أو أعطني أجرتي.

الباشا (وهو يدفع المكاري بيده): اذهب عنا أيها السفيه فلو كان سلاحي معي لقتلتك.

المكاري (متسافها في القول):ً كيف تجسر على هذا الكلام! فإما أن تعطيني أجرتي وإما أن تذهب معي إلى «القسم» وسترى هناك ما يعاقبونك على تهديدك إياي بالقتل.

الباشا (لعيسى بن هشام): إني لأعجب من صبرك على هذا الفلاح السفيه الذيّ استرسل معنا في سفاهته ووقاحته، فهلم فاضربه بالنيابة عني حتى تريحه من عيشته وتريحنا منه .. .. ..(حتى نهاية النص).

* د. علي الرباعي(١٣٨٥هجرية حتى الآن) وهو الدكتور علي بن محمد الرباعي، شاعر وصحافي تنقل في أكثر من صحيفة سعودية ويدير الآن مكتب صحيفة عكاظ في مدينة الباحة، له مؤلفات عديدة منها: هُس(مجموعة قصصية) أنامل خضر(شعر) وكتب أخرى تتناول قضايا الوطن منها: وطن متجدد، وكتاب الوطن سادس الضرورات. وله أيضا كتابان في تقييد أوابد السخرية الشعبية، وإن شئت فقل: إعادة انتاج السخرية الشعبية في الباحة وهما: كتاب حدثتني سعدى عن رفعة, وكتاب حدثني أبي.

جـ استهلاك السخرية

تصل حركة السخرية في نهاية المطاف عند مستهلك السخرية، لكنها لا تتوقف عنده، فلربما أعاد انتاجها بطريقة من الطرق ولربما تحول إلى صانع جديد من صنّاعها وهذه هي سنن السخرية.

نستطيع تمييز فئات ثلاثة من الفئات التي تمثل المستهلك الصريح للسخرية، وهم: المتعبون الذين يواجهون متاعب الحياة اليومية بصدور عارية، وكذلك السمّار الذين يمضي بهم الليل وهم يتجاذبون أطراف الحديث، ثم الدارسين الذي وجهوا عنايتهم نحو السخرية لدراستها وتأمل جوانبها المختلفة.

* المتعبون: لقد قال المعرّي: تعبٌ كُلّها الحياةُ فما أعجبُ إلا من راغبٍ في ازدياد. ومع ما فيها من تعب إلا أن السوي من الناس لا يسأم منها أبدا، بل يصبر، ويبحث عن العزاء والسلوى في مواقع أخرى داخل الحياة نفسها.

لقد كان في قصص الأنبياء عليهم السلام خير عزاء وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم كلما اشتد عليه أذى كفّار قريش.

وفي قصص السخرية وفي أقوال الساخرين تسلية للمتعبين، وإني أتذكر الان صديقا تخلى عنه الحظ في جائزة كبيرة كان يحلم

بها فأصابه الإحباط وكاد أن يحرق مكتبته وما إن أخبرته بما فعل برناردشو وبما قال عند رفضه استلام جائزة نوبل ضحك طويلا وكانت بداية عودته إلى واقعه بسلام.

* السمّار، والسمّار هنا كلمة قد غادرت معناها الحرفي بعد شيوع وسائل التواصل الاجتماعي فبات المكب على برنامج مثل تك توك في سمرة قد تكون ليلا وقد تكون نهارا يسامر فيها أقرانه من مرتادي البرنامج نفسه، يكتب لهم، ويكتبون له، يحدثهم ويحدثونه. ومن يتابع هذه البرامج يجد فيها استحضارا واسعا لقصص السخرية وأخبار الساخرين وأقوالهم ولكل سامر أربا يتوخى نيله.

* الدارسون وجلهم من أهل البحث العلمي، يبحثون في السخرية وأدبها، بحثا في بلاغتها وتداوليتها ودورها في التقويم والتربية

النافذة الثالثة

حدثتني سعدى عن رفعة

-بيئة الكتاب.

-السخرية في المخيال الشعبي.

-الكتاب مطبوعا.

-ملاذات السخرية في الكتاب.

-نماذج من قصص الكتاب.

بيئة الكتاب

الباحة هي البيئة الأوسع لهذا الكتاب، لكن ذرى السراة هي البيئة الأقرب له، فالباحة توشك أن تشف عن ثلاثة شرائح تضاريسية متطاولة متوازية من جنوب المنطقة إلى شمالها.

في الشرق تمتد هضبة يصل أقصى ارتفاع لها إلى ١٥٠٠ متر تحتله السفوح الشرقية لجبال السراة المتدرجة في انحدارها حتى تلتقي بمناطق أكثر انبساطا تتخللها الواحات حينا والحرّات البركانية أحيانا أخرى، وتنساب فيها أودية منها الثرادين وكرا وأبيدة.

أما الغرب فتحتله منخفضات تهامة الممتدة من أسفل قاعدة جبال السراة متوغلة في الخبوت الغربية القريبة من سيف البحر الأحمر، ويجري فيها أودية كثيرة منها وادي الأحسبه ونيرا والشاقة.

أما الشريحة الوسطى، فيما بين الهضاب الشرقية وبين تهامة فهي حردوب السراة وظهرها الأخضر وإن سمّاه أهله ساق الغراب، وهو المنطقة الأقرب لمحتوى هذا الكتاب ويبدو لي أن معظم القصص الواردة فيه هي قصص دارت أحداثها في ساق الغراب هذا.

سكان هذه الشريحة مزارعون يمارسون الزراعة مرتين في كل عام، مرة في الشتاء والربيع ويزرعون فيها القمح والشعير والعدس

الذي يسمونه البوسن والبلسن. ومرة في آخر الربيع ومعظم الصيف ويزرعون فيه نوعين من الذرة ويزرعون اللوبيا أيضا.

تقوم على هامش الزراعة أنشطة مثل تربية الحيوانات والدواجن وتنشط أسواقهم في أيام معينة من الأسبوع وأهمها: اثنين بني علي في بلاد دوس، سبت المندق، ربوع الصفح، سبت النقعة، ربوع الأطاولة، سبت الرومي، أحد رغدان، خميس الباحة، ثلاثاء الظفير، سبت غشمر، أحد بني والبه، اثنين قرن المغسل، سبت بلجرشي، ثلاثاء الحميد.

وكان لكل قرية كبير يسمونه العريفة، والعرب تؤنث من صفات الذكور مالا يحتمل أن تتصف به أنثى مثل علّامة، ورحّالة، وتُذَكّر من صفات الإناث مالا يحتمل أن يتصف به ذكر، مثل حامل، وطالق، وناشز.

ولكل قرية مسجد له إمام ومؤذن، ولكل عدة قرى قاض يفتيهم ويحكم بينهم ويكتب مستنداتهم ووثائقهم المختلفة لندرة من يقرأ ويكتب في تلك الأزمان، وفي كل قبيلة حكماء يسمونهم العُرّاف، وفيهم شاعر أو أكثر يعبر عن أمانيهم ويساعدهم على فهم مشكلاتهم المختلفة.

وكانت المرأة حاضرة في العمل وفي الأسواق، ولكنها كانت محمية بقوانين وأعراف لا يمكن تجاهلها، وقد تجد من بينهن الحكيمة

التي تشارك برأيها، ولذلك قالوا في بعض أمثاله: خذ الشور من تحت الضفائر.

كانت هذه هي الأحوال السائدة حتى استقرت أوضاع المملكة العربية السعودية بعد حروب التوحيد فامتدت يد التنمية إلى كل قرية ويوشك أن يكون عام ١٤٠٠ هجرية عاما توقفت عنده معظم أشكال الحياة السابقة وبرزت حياة جديدة مختلفة زانها التعليم والرعاية الصحية وشبكات الطرق والمياه والصرف الصحي ودخلت وسائل التمدن كل بيت من بيوتات أهل الباحة ولم تعد تختلف في شيء عن غيرها من مناطق المملكة.

السخرية في المخيال الشعبي

أولا- تعابير الدلالة عليها:

من عجائب الأقدار أن كلمة " سخرية " التي جذرها سَ خِ رَ غير متداولة في الباحة على مستوى العامة، لقد بحثت طويلا في أشعارهم الشعبية وفي أمثالهم وفي حكاياتهم فلم أظفر بشيء. لكن هناك تعابير كثيرة تقوم مقام ذلك، بعضها قديم من سنوات العزلة(قبل تأسيس المملكة العربية السعودية) وبعضها حديث مكتسب بعد توحيد المملكة العربية السعودية.

لقد عبّر الباحيون عن من يسخر بقولهم: يتمشدق، ويتشيدق، وواضح أنها مشتقة من الشدقين وهما جانبا الفم، وقد جاء في كتاب الترغيب والترهيب ما رواه أبو ثعلبة الخشني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربَكم منِّي في الآخرةِ محاسِنُكم أخلاقًا وإنَّ أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم منِّي في الآخرةِ أسوَأكم أخلاقًا الثَّرثارون المُتفيهِقون المتشدِّقون" وقد جاء في شرح كلمة " المتشدقون": والمتشدِّقون" الَّذين يتَوسَّعون في الكلامِ، ويَلْوون ألسِنتَهم به، ويَفتخِرون به بغيرِ حقٍّ، وقيل: معناه: الَّذين **يَستهزِئون** بالناسِ بلَيِّ أشْداقِهم.

كما استخدموا للدلالة على السخرية كلمة أخرى من الاستهزاء فيقولون فلان يتهزّى بفلان، واستخدموا كلمة يضحك فيقولون فلان يضحك بفلان أو يتضاحك به وقد وردت العبارة بنفس الرسم والمعنى في بعض أحاديث نبوية مثل حديث عبدالله بن مسعود الذي قال: قال رسول الله ﷺ : "إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا الجنة. رجل يخرج من النار حبوا. فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة. فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى. فيرجع فيقول: يا رب! وجدتها ملأى. فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة. قال فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى. فيرجع فيقول: يا رب! وجدتها ملأى. فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة. فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها. أو إن لك عشرة أمثال الدنيا. قال فيقول: أتسخر بي (أو أتضحك بي) وأنت الملك؟" قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

وأطلقوا على نوع من أنواع السخرية اسم التشبيه ولكنهم ينفرون منه، وأطلقوا على من يشبّه بقصد السخرية اسم الشمّات، ومنذ ثمانية عقود دخلت للقاموس الشعبي في الباحة مفردة جديدة وجدوها متداولة في مدن الحجاز القريبة منهم (الطائف ومكة المكرمة وجدة) وهي المسخرة وجعلوا كلمة يتمسخر أو يتمصخر قائمة بمعنى السخرية، ومن عجيب المصادفات أن المسخرة تعني السخرية ليس

في العربية الفصحى ولكن في لغات أخرى غير عربية فهي masxara في اللغة الأوزبكية، وهي тамасхур في اللغة الطاجيكية، وهي تمسخر في اللغة الفارسية، وهي مسخرة في اللغة الباشتوية، وربما كانت أصولها تركية عثمانية انتقلت إلى المدن العربية وإلى أوزبكستان وطاجيكستان وإيران وأفغانستان.

ومؤخرا أضيفت كلمة "الطقطقة" لتدل على السخرية ويبدو أنها قد جاءت من تتابع الكلام وتبادل مقارعة الضحية من جانب عصبة من الساخرين، ويبدو أن نجدا أو الأحساء هي محلّ نشأة هذه الكلمة، وجاءوا – أيضا– بكلمة "خبو" للكلام الذي يحوي سخرية مخبأة، لكنهم صرّحوا بمصدر هذه الكلمة فقالوا: خبو بني مالك. والله أعلم.

ثانيا: شروطها:

لم يترك السابقون شروطا للسخرية مكتوبة أو حتى محفوظة، ولكننا تعلمنا منهم حدود السخرية، وآدابها، فكنا إذا جلسنا معهم في المجالس وطرحنا سخرية لا تليق فإننا نرى الرفض باديا على وجوههم، هذا إن لم تصل الأمور إلى الضرب ومشتقاته.

لذلك تعلمنا من الحياة معهم أن السخرية المقبولة في مجالس الرجال ينبغي أن تحذر الوقوع في أي من هذه المحاذير:

* عدم السخرية من شخص بعينه، ذكرا كان أم أنثى.

* تجنب الإسفاف والكلام المنقود(الكلام النابئ الذي ينتقده الآخرون)، ويسمون هذا الضرب من الكلام: المعرفة المنقودة.

* تجنب الاستخفاف بالآخرين، وإظهار التكبر، ويقولون في أمثالهم الشعبية: لا تتكبر فإن أصبع الله قيس كل عين.

* تجنب السخرية من صنّاع المعروف وأهل الخير، والقائمين على مصالح البلاد والعباد.

الكتاب مطبوعا

هذا الكتاب هو من إصدارات النادي الأدبي الثقافي بالطائف، وقد تمت طباعته عبر مؤسسة الانتشار العربي في لبنان، والطبعة التي بين يدي هي الطبعة الأولى في عام ٢٠١٩م، ومؤلفه هو الكاتب الأديب الصحافي الدكتور علي محمد الرباعي، أما مصمم الغلاف فهو الفنان السعودي عبد الله الدهري.

جاء الكتاب في ١٨٤ صفحة من القطع الصغير ١٣.٥ × ٢١.٥ المقارب لمقاس A5 ، وقد احتوى على ٨٣ قصة استوحى المؤلف أفكارها من بيئة منطقة الباحة، ومن حياة سكانها وتفاعلاتهم الطبيعية مع شؤون الحياة وشجونها وكما هو واضح من العنوان فهي تفاعلات كانت قبل عام ١٤٠٠ هجرية وإن كانت هناك قصة أو قصتان مما جاء بعد تلك الحقبة.

لا شك أن للمؤلف رؤاه وأهدافه من وراء تدوين قصص هذا الكتاب، وقد شدّني كثيرا بحكم اهتمامي بالثقافة الشعبية فاقتنيته بالشراء المباشر من مكتبة في الباحة وعكفت على مطالعته، وقد وجدت فيه إعادة لإنتاج سخرية الناس.

لم اسأل المؤلف أبدا وما التقيت معه حول هذا الكتاب، لكن اهتمامه بهذه القصص كشف لي عن ثقته بالمجتمع المحلي في مختلف بيئاته المكانية والزمانية فتراءت لي فكرة السخرية عند الناس.

كان مجتمعا بسيطا يعيش حياة بسيطة تقوم على الزراعة غالبا، والزراعة في عموم المنطقة زراعة بعلية تقوم على الأمطار بنسبة قد تصل إلى ستين في المائة من أراضيهم الزراعية، والصفة الجغرافية لهذا المكان من العالم يجعلها في هامشين قدريين، هامش الرياح الشتوية المطيرة، وهامش الرياح الموسمية المطيرة، والهوامش قد لا تحظى بنصيب عادل من المطر، ولذلك كانت سنوات الجفاف تأكل سنوات المطر في منعطفات كثيرة من تاريخ المنطقة.

لا شك أن الحياة قد احتدمت في هذا المكان من العالم، وتحت تلك الظروف القاسية، ولا شك أن تتابعات الجفاف والندى قد تركت آثارها العميقة داخل البيوت، وداخل السياجات والمحاجر الزراعية، وداخل القرى وفي مساربها ومساجدها وأسواقها، احتدمت الحياة فكان للناس مع هموم المعيشة مساحات للمزح والدعابة والسخرية.

جمع المؤلف مادته من قصص تلك الأجيال ونقلها لنا في قوالب خفيفة مقبولة بعيدة عن التكلف، أراد أن يوثق قصصا سمعها

في طفولته وفي شبابه لكنه في واقع الأمر قد أعاد انتاج البسمات والضحكات البريئة التي كانت تطوف سماوات القرى صبحا وعشية.

نشر المؤلف هذه المادة منجمة على حلقات أسبوعية في جريدة عكاظ، تحت عنوان: بالسكين. ثم أعاد نشرها في هذا الكتاب وفرحتُ بذلك فالصحيفة قد تصل وقد لا تصل في زمان تغادرنا فيه الصحف التي لم تعد آية في هذا الزمان.

ملاذات السخرية في الكتاب

للسخرية ملاذات آمنة تلوذ بها لتصل بسهولة ويسر إلى مستهلكها من عامة الناس ومن خاصتهم، ومن تلك الملاذات الآمنة: القصة، المثل، الشعر، المسكوكات اللفظية، وجميعها يتمثل بها الساخر فتصل بسرعة خاطفة إلى المتلقي ويستقبلها بوضوح تام.

القصة:

تضمن الكتاب قصصا كثيرة هي:(أبو الحصين جاك، أبو عدله وأبو عساف، اختلط حب المساقي وحب العثري، اذا تنافست الحمير حظ الركابة، أشغب؟، الاصنق ورا العراضة، برهوم المشؤوم، بشير وعود الاكسير، بطنه بظهره، بئر الفتنة، تتصافق حتى تتوافق، التينة وشطوة الكهلة، جربننا وما فيه، جمعة القضا وحمدان الأعمى، الجوع مخلف الطبوع، حتى السيد يشتي المرقة، حرامية بقرة الميتم، حسيل الصانع وريال عم احمد، حسيل الغدرة، حشمة حب الحاج نسقي الثفلة، الحق ينطح نطح، خراط لوزة الأعمى، الدبشة ومناش العيد، دقن الطماع في ظهر المفلس، دهشر رجب ورجنب، الديره جنه، ديك الفقيه العشاري ومشلح القحم، ديك يخاف الحدأة، ديوك الفقيه وأبو حصين، ريال فلسطين وبساتين حيفا، زمن الحمرية،

ساقك بطنك، شختك بختك، شركة السوق، الصلعة والأرض البيضاء، طلقها وخذ اختها، عاد من ذا عيده، عقلك ترللي، عليّ إزر، العيّار والجزار، عيد اللحم والبكش، العيد يلم الأجاويد، عيرنا ذاك الأول، غاليه المودمانيه والماطور الغدار، فانوس بلاش ولا لمبة بقروش، فقع ماله رقع، في راسي حب ما انطحن، قرصك في السمن، قصيدة تجيب عصيدة، القطع في لحم البدوي، قوم بلا جهال تغدي مذلة، كد الفلس، كذبه بكذبه، لا جمل ولا حماطه، لحيه ترضيها بصله، للطير وشبّار الخير، لو طلعنا على المدماك، اللواق وسحاريه الجدة، لوز المجانين، اللي ساق امس يسوق اليوم، اللي ما يدري يقول بلسن، ليتك خليته على مبنى الشايب، ليله بلا أم، ما تحت المنخل دقيق، ما خبرنا ميت شرد، ما عاد يقول للراعد يا كريم، الما مخارم من شدا الى الهدا، ما سمع وراسه بين اكتافه، ما يبني في الديرة الا حصاها، المجاودون وحوش الفطاني، المجمهر وابنها، المربوش، مركوب واعظ وقصبة البرسيم، المطرف كما المريض، مكة عند بابي يا حبابي، موت مصلح، هبيلة القبيلة، هضبة الصنة قلعناها، وش تعطيني وتعرف ذباح ابوك، وش غدا به يناغش عش الدبارين يا غبني على دغبوسي، يرحم ابوك اللي كان يخلطها، يقطّر فوقي)، وهذا جدول يبين القصة ومشهد السخرية المقترح فيها:

جدول القصص مرتبه على الألفباء ، ومشاهد السخرية المتوقعة في كل قصة

عنوان القصة	مشهد السخرية (هذا ما تراءى لي كدارس وليس بالضرورة أن يكون هذا رأي المؤلف)
أبو الحصين جاك	سخرية السائق المتمدن من القرويين
أبو عدله وأبو عساف	سخرية الراوي من تلاقي درويش وعبقري
اختلط حب المساقي وحب العثري	سخرية البائع من مرتادي السوق
اذا تنافست الحمير حظ الركابة	سخرية الراوي من بلاهة العريفة
أشغب؟	سخرية الراوي من مفارقة اللثغة
الاصنق ورا العراضة	سخرية الراوي من الأصم الذي يشارك في العرضة
برهوم المشؤوم	سخرية الراوي من الشؤم
بشير وعود الاكسير	سخرية الراوي من القسمة والنصيب
بطنه بظهره	سخرية العريفة من العطوي
بئر الفتنة	سخرية الراوي من اقتتال الجيران على وشل ماء
تتصافق حتى تتوافق	سخرية الراوي من تطور الأحداث
التينة وشطوة الكهلة	سخرية الراوي من التينة
جربننا وما فيه	سخرية الراوي من عدم تمكين المرأة في قريته
جمعة القضا وحمدان الأعمى	سخرية ابن القرية من بنات المدينة
الجوع مخلف الطبوع	سخرية الراوي من الكلام على الطعام
حتى السيد يشتي المرقة	سخرية المزارع من السيّد الولي
حرامية بقرة الميتم	سخرية الراوي من جهل الناس بالأشياء الحديثة عليهم
حسيل الصانع وريال عم احمد	سخرية الراوي في خطورة المال
حسيل الغدرة	سخرية الراوي من حسيل الغدرة ومن حسيل الناس(حسيل الغدرة
حشمة حب الحاج نسقي الثفلة	سخرية الراوي ممن يعميه هدف بعيد المنال
الحق ينطح نطح	سخرية الفقير من القاضي
خراط لوزة الأعمى	سخرية العريفة من سطوة الأعمى
الدبشة ومناش العيد	السخرية سجال داخل مجتمع صغير
دقن الطماع في ظهر المفلس	سخرية الراوي من البائع والسمسار
دهشر رجب ورجنب	سخرية الراوي من المغفل وزوجته الداهية
الديره جنة	سخرية ابن المدينة من القروي
ديك الفقيه العشاري ومشلح القحم	سخرية الراوي من تفضيل الأعمال اليسيرة على غيرها
ديك يخاف الحدأة	سخرية الراوي من الديك
ديوك الفقيه وأبو حصين	سخرية الراوي من مكر أبو حسين
ريال فلسطين وبساتين حيفا	سخرية الراوي من التعامل بإخلاص مع مستمرئ الخيانة
زمن الحمرية	سخرية الراوي من الأزمنة التعيسة
ساقك بطنك	سخرية الزوج من طموحات الزوجة
شختك بختك	سخرية الحماة من زوجات أبنائها
شركة السوق	سخرية الراوي من البخلاء
الصلعة والأرض البيضاء	سخرية الراوي من بعض الاجراءات
طلقها وخذ اختها	سخرية الراوي من الفقيه المعالج
عاد من ذا عيده	سخرية الراوي من الظروف وكيف تجري
عقلك ترللي	سخرية الراوي ممن يعطي لنفسه أوصافا كاذبه
علي إزر	سخرية الراوي من التنطع
العيّار والجزار	سخرية الجزار من عمى الناس
عيد اللحم والبكش	سخرية ابن المدينة من القروي
العيد يلم الأجاويد	سخرية المؤذن من الامام
عيرنا ذاك الأول	سخرية الراوي من الفقيه المحتال ومن الأخوين المغفلين
غاليه المودمانيه والماطور الغدار	سخرية الراوي من عدم الثقة في الزوجة
فانوس بلاش ولا لمبة بقروش	سخرية الراوي من الانسياق ورا الاحلام

فقع ماله رقع	سخرية المؤذن من الامام
في راسي حب ما انطحن	سخرية الزوجة من ضعف الزوج
قرصك في السمن	سخرية الراوي من الغضب
قصيدة تجيب عصيدة	سخرية الراوي من ورطة العريفة
القطع في لحم البدوي	سخرية الراوي من طهار كبار السن كما كان شائعا في التهائم
قوم بلا جهال تغدي مذلة	سخرية الأب من ابنه
كد الفلس	سخرية الابن من جهد أبيه في المزرعة
كذبه بكذبه	سخرية الشاب من بعض مواجهات الحياة
لا جمل ولا حماطه	سخرية الراوي من قبول الوشاية
لحيه ترضيها بصله	سخرية الراوي من التشدد الذي لا يراعي حاجات العباد
للطير وشبّار الخير	سخرية صاحب الدار من ضيفه الثقيل
لو طلعنا على المدماك	سخرية الراوي من الخلاف بين الإخوة
اللواق وسحارية الجدة	سخرية المجتمع من سطوة اشتهاء التمر وعموم الحلا
لوز المجانين	سخرية الراوي من مجانين اللوز
اللي ساق امس يسوق اليوم	سخرية الراوي من جهل العصملي بقوانين الري
اللي ما يدري يقول بلسن	سخرية الأب من الابن الشقي
ليتك خليته على مبنى الشايب	سخرية الراوي من كارهي أسمائهم
ليله بلا أم	سخرية الحياة من الأبناء في غياب أمهم
ما تحت المنخل دقيق	سخرية الراوي من انطفاء الرجل
ما خبرنا ميت شرد	سخرية الدرويش من أهل القرية
ما عاد يقول للراعد يا كريم	سخرية مسؤول سابق من مسؤول لاحق
الما مخارم من شدا الى الهدا	سخرية مندوب القرية من طبيعة الأنظمة
ما سمع وراسه بين اكتافه	سخرية أهل القرية من التلقين بعد الوفاة
ما يبني في الديرة الا حصاها	سخرية الحماة من زوجة ابنها
المجاودون وحوش الفطاني	سخرية ابن المدينة من القروي
المجمهر وابنها	سخرية الراوي من الغيرة
المربوش	سخرية الراوي من المربوش
مركوب واعظ وقصبة البرسيم	سخرية المزارع صالح من الواعظ
المطرف كما المريض	السخرية من المريض على فراش الموت، لا مات ولا استراح الناس من زيارته وما يتبعها من هدايا.
مكة عند بابي يا حبابي	السخرية من المبالغة حتى في العبادات
موت مصلح	سخرية الراوي من انطفاء الرجل
هبيلة القبيلة	سخرية الراوي من القسمة والنصيب
هضبة الصنة قلعناها	سخرية الراوي من القسمة والنصيب
وش تعطيني وتعرف ذباح ابوك	سخرية شيخ القبيلة من محراث الشر
وش غدا به يناغش عش البارين	سخرية رمز قبيلة من أبنائها
يا غبني على دغبوسي	سخرية الجد من مائدة معاصرة
يرحم ابوك اللي كان يخلطها	سخرية الراوي من الضيف الطماع
يقطّر فوقي	سخرية الراوي من الإهمال

المثل:

وتضمن الكتاب أيضا حشدا كبيرا من الأمثال، منها:(سألوا الديك ليش تخرع من الحديّا؟ قال: أخرعتني وآنا صغير) و(كل شدق وله رزق) و(فلان كما شركة السوق) و(من معه عين وراس، سوّى سواة الناس) و(أعط من مالك ولا يرمى خيالك) و(كاكي والا لا تكاكي فالحق نطاح) و(ليتك خليته على مبنى الشايب) و(حلفت يا اسمي منت عني بغادي) و (ما سمع وراسه بين اكتافه) و(لا جمل ولا حماطة) و (يسرّحها ضان ويروحها معزى) و(اللي ساق أمس يسوق اليوم) و(عيرنا ذاك الأول) و(أبصم على شحم) و(لحية ترضيها بصله) و(يعلم الصبية قدّام يحط الجنبية) و(ما تحت المنخل دقيق) و(طير ياكل طير والثالث يصوصي) و(حظ أبو زيد في الحمير) وغير ذلك.

الشعر:

وقد ورد الشعر في ثنايا الكتاب على شكل أشطار أو أبيات ومنها: قال المذرّع: (لقيت لي رجال ركّب فوق بيري، بالفريدة واشغل البير، يدرج على مهله وكن البير بيره) ولأبي رزق (الذي اصنق ما يجي يلعب ولا يعرض مع العراضة، يخلف العرضة ويغدي حفلنا لعبة ورقصنه، لو تقل ميده تريّح، وانتسم، غيرك يقيم الحفلة، قال

ماهلا معك مني كما الضيقة وميزره) وشطر (يا لوز جافان الأخضر كنت ظامي وش ارواك؟) ولأبي رزق(يقول أبو رزق يا قصة حميد بن منصور، يوم التقى البهلوان أيام في الجاهلية، وقال له: ودّي آعلمك من ذبح آبوك؟ عوّد يقول لا تعلمني عنه مات واقفى، وانا دخيلك تتوب ان كان علمت غيري، إثره يدورني أذبح واحدٍ ما ذبح بي، ما عاد يبغون ستر الله مع الناس عتبه) وغير ذلك.

المسكوكات اللفظية:

هي عبارات كانت تحمل معنى أصليا لها ثم تداولها الناس وأخرجوها من معناها الأصلي إلى مقاصد عامة وتداولوها عند السخرية في مقصدها العام، وهذه قائمة من تلك المسكوكات اللفظية الواردة في الكتاب:

العبارة	المعنى المتداول
أبو الحصين جاك؟	مسكوكة تلغيزية للمداعبة وخاصة للأطفال
اختلط شري بشره	الاقتتال
أركبه الريع	أسلمه للضياع ومنها: أركبه الريعان، أركبه الجبال، أركبه خشبة
انقلب وجهه	تغيّر لونه
بريت الهم	أخليك من المسؤولية
بطنه بظهره	يتقاضى أجرته على شكل وجبات طعام
بيوت الشقا	بيت العمل الشاق المستمر بسبب اتساع الملك الزراعي
جمعة القضاء	كل أمر يؤدي إلى مخالصة نهائية
جمل البدو	كل رجل أو أنثى أطرافه طويلة
جمل الليل	كائن خرافي
خرب جرب	فاسد من الداخل ومن الخارج
صقر الرخاصة	قوي يستغل قوته في أمور تافهة
عزّ واليك	تسبيح عند رؤية البرق لكنها أصبحت تقال للتفاؤل بصوت ما
عش الدبارين	من لا خير في مناوشته
عصاة العشر	كل عصا ضعيفة
عصيف الفية	كل نبات ضعيف البنيان ومنها حقل الفيّة

قرصك في سمن	حاجتك مقضية بصفة خاصة
كذبة بكذبة	خطأ مقابل خطأ
كل حمراء تنزف	سيلان الدم من المتعاركين
لُقاة الخير	أهل السعي بالصلح
الله يرحم الحصى	للترحم على من لا نحب
اللواق	بواو مهمله: ما كان طعمه حلوا، ومشددة: من يحب التمر والسكر والحلوى
الليلة اليتيمة	كل ليلة تختم أيام مضت من الجهد والتعب
المجمهر	المرأة المتمردة
مخاطة السفيه	مخاط الطفل الرضيع، وهو مخاط خفيف القوام
مرقاد جدتي	دعاء بالموت
مكده ومخدة	كل ما يجمع بين الفائدة واللذة
يا الله لك الحمد	عبارة مؤدبة للتعبير عما لا تقبله النفس.

نموذج للقصص الفردانية في الكتاب:

أشغب؟

أشغب

لم يكن في القرية إلا بيوت معدودة تحتكم على عاملة وزاملة ولذا لامناص من التعاصب بحيث يشترك اثنان بثوريهما أو حماريهما ليكونا آلة حرث ودياس ويوم الحرث يوم مشهود فرائحة تراب الأرض تنبعث من كل صوب وفوح شعل الخبز تعم القرى.

كان الصغار يحضّبون الركايب عدا الأنخ الذي ترصّد أمه حتى انشغلت بقلع الخبزة من الملة فقال لها: أشغب، قالت: أشغب ظنا منها أنه سيرفع الصوت بالغناء، فتناول طاسة السمن ومقها لآخر قطرة، فاستعانت بالله ثم بجارتها واشتلت قفتها على رأسها وانطلقت إلى الوادي وكلها زهو كون فالها سيكون حديث القرية والقرى المجاورة كون المتعاصب مع بعلها من قرية مجاورة وكان سيد المزرعة تحت خوط عرعر في السند بجواره مذياع يصدح وفي كفه غليون يعمّر به الرأس، نادت عليه: قم حط عني، فرد: أبشري بي، وعصيبه يتابع من طرف خفي ويتبسم.

توضيح:

أشغب ؟ يعني أشرب؟ هكذا نطقها الابن الأخنّ، لكن الأم فهمتها أنه يستأذنها في الغناء، يشغب بالصوت! فقالت: اشغب. فشرب ما في الإناء.

نموذج للقصص الجماعاتية في الكتاب:

الماء مخارم من شدا إلى الهدا

الماء مخارم من شدا إلى الهدا

قبل ما يقارب ستين عاما، تعثر قرار افتتاح مدرسة ومحكمة فاجتمع كبار القرية واتفقوا على إرسال أكثرهم وعيًا وفصاحة إلى محافظة الطائف للتعقيب على الموضوع، كون الوزارات تعمل من الطائف طيلة الصيف، وبالفعل أمنوا له سيارة لنقله وارتحل مؤملا أن يعود بما كان يطمح وجماعة القرية إليه، ولكنه أضاع أسبوعا في مراجعات ووعود لم يتحقق في حينها منها أي شيء، وعندما رجع إلى الباحة اجتمعوا لضيافته، وبعد العشاء سألوه: بشّر؟ فرد عليهم (الماء مخارم من شدا إلى الهدا).

توضيح:

روى الشيخ إبراهيم الحسيل قصة قريبة من هذه حدثت خلال حكم الدولة السعودية الأولى، وهي أن رجلا صدر له حكم شرعي في المنطقة فلم يعجبه وقرر مراجعة الدرعية (العاصمة يومها) فأسمعوه نفس الحكم لأن الشريعة واحدة، فعاد إلى قومه وعندما سألوه قال: الما مخارم من هنا إلى الدرعية. والقصتان جميلتان واضحتا المغزى.

نموذج للقصص الأسرية في الكتاب:

ما يبني في الديرة إلا حصاها

ما يبني في الديرة إلا حصاها

اجتهد محسن في الزواج من إحدى البنات المؤهلات جمالًا ودراسة، إلا أنه لم ينجح في الظفر بموافقة أهل من يخطبها،نصحته أمه: يا ولدي اختار من بيوت عمل وضيعة «بيوت الشقا» بناتهم «مكدة ومخدة» لم يأخذ بالنصيحة وأخرج فيزا للزواج من الخارج، فجاءت عروس الابن بمواصفاته وتحدثت القرية (عن الزين والملح) إلا أن أم محسن لم تستوعب الموضوع، وكلما نادت على (نادية) ردّت «تقبريني حماتي» فقالت لها «اخشعي ملأت بيتنا قبورا» ورددت مع الشاعر (هديت بيت الطين بيدي وأنا بلعاني، نبغى المسلح ما لنا في الحصى نيه) وقالت «يا حليلك يالمخور، فرحان بنادية، والله ما يبني في الديرة إلا حصاها».

توضيح:

قالت له أمه: يا ولدي اختار من بيوت عمل و ضَيْعه، والضيعة هنا تعني العمل في البيت وفي الحقل، أما الأبيات المدرجة فهي من قصيدة للشاعر محمد الرفيدي " أبو جعيدي" الشهير بأعمى قذانة.

الخاتمة

وهكذا نجد أن السخرية كانت لغة، وأداة تعبير ، واستراحات مفتوحة على مدار الساعة، ولم يكن إنسان الباحة ببعيد عن تلك اللغة وتلك الأداة وتلك الاستراحة، بل أن ظروف الموقع والمعيشة في منطقته قبل توحيد المملكة لتضعه في عين الهمّ والقلق والتأزم ولتجعل السخرية في حياته ضرورة وترفا في آن معا.

لقد ابتكر حكاياته، وأمثاله وكَنَزَ مسكوكاته ذخرا لوقت الحاجة، وفوق ذلك فقد ابتكر شخصياته ومنها شخصية أبي نواس الذي لا يمت لأبي نواس الشاعر العباسي بأي صله، بل هو شاب ظريف يملأ فراغات يومه بالمقالب والحيل والنُكَت.

وابتكر شخصية الدوّي، وأبو نواس العطوي، وفتح الباب للمشبهين والبضاخين والمضحكين والشمّاتين ليمارسوا دورهم في إضحاك الناس حتى ولم يضحكوا، يكفي أن يكون هناك مشروعا للضحك، ولمقاومة التجمد في ثلاجة هموم الموقع والمناخ والغزاة الذين يختارون جهاتهم الأصلية والفرعية كما يختار الزبون حبة بطيخ.

الحمد لله على نعمة الأمن والأمان التي تحياها نفوسنا، في ظل بلد آمن مطمئن، ولا بأس من استذكار سنوات الشدة لنعي جيدا معاني الرخاء.

المراجع

١ ابن الجوزي، أبو الفرج(أخبار الحمقى والمغفلين) مؤسسة هنداوي- القاهرة ٢٠١٧م

٢ ابن منظور، الإمام العلامة(لسان العرب) دار إحياء التراث، بيروت ١٩٩٩م

٣ بافي، باتريس(معجم المسرح) الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٥

٤ التوحيدي، أبو حيان(الامتاع والمؤانسة) لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٢م

٥ الجوهري، إسماعيل بن حمّاد(الصحاح) الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين ١٩٨٤م

٦ الرباعي، د. علي(حدثتني سعدى عن رفعة قالت) دار الانتشار، بيروت٢٠١٩م

٧ السباعي، أحمد(الأعمال الكاملة للأديب أحمد السباعي) إثنينية الخوجة، جدة ٢٠٠٩م

٨ سليمان، حمدي(الأدب الساخر، أبحاث وشهادات) القاهرة ٢٠٠٢م

٩ الصفّار، د. ابتسام(أبو العيناء، الأديب البصري الظريف) بغداد ١٩٨٨م

١٠ عبد الباقي، محمد فؤاد(المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم) دار الكتب المصرية، ١٩٤٤م

١١ عبد النور، جبّور(المعجم الأدبي) الطبعة الثانية-دار العلم للملايين، بيروت١٩٨٤م

١٢ العقاد، عباس محمود(جحا الضاحك المضحك) الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠م

١٣ العقاد، محمود عباس(أبو نواس) مؤسسة هنداوي، القاهرة ٢٠١٤م

١٤ العمير، علي(الوخزات) دار العمير، الطبعة الأولى، جدة ١٩٨٦م

١٥ فرج، الفريد(علي جناح التبريزي) الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٣

١٦ فكري، محمد همام(النحلة، مجلة رائدة بن الشهد واللسع) مجلة أعناب، العدد الساس ٢٠١٦م

١٧ المويلحي، محمد(حديث عيسى بن هشام) كلمات عربية- القاهرة ٢٠١٣م

١٨ النجار، د. محمد(جحا العربي) عالم المعرفة ١٠- الكويت ١٩٨٧م

١٩ النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق(الفهرست) مؤسسة الفرقان، لندن٢٠٠٩م

٢٠ وجدي، محمد فريد(دائرة معارف القرن العشرين) المجلد الخامس، دار المعرفة، بيروت١٩٧١م

٢١ ونسنك، الدكتور ر.ي، وآخرون(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث) مطبعة ليدن ١٩٣٦م

٢٢ الهمذاني، بديع الزمان(مقامات بديع الزمان الهمذاني) الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة٢٠١٢

فهرس محتويات النافذة الأولى (السخرية في أوراقي)

فهرس محتويات النافذة الثانية (حركة السخرية)

فهرس محتويات النافذة الثالثة

حدثتني سعدى عن رفعة

رقم الإيداع: 1445/19032 ردمك: 978-603-05-0020-8